المؤرخ والسلطان في إفريقيا الغربية
خلال القرنين ١٦ و١٧م: أيُّ علاقة؟

مجلة دراسات إفريقية

Journal Homepage: http://studies.africansc.iq/
ISSN: 2518- 9271 (Print) ISSN: 2518- 9360 (Online)

المؤرخ والسلطان في إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٦ و١٧م: أيُّ علاقة؟

د. علي عيسى

جامعة حلب – كلية العلوم السياسية والقانونية (سوريا)

aliissa82@yahoo.fr

تاريخ الاستلام:
٢٥/ ١/ ٢٠٢٤

تاريخ القبول:
٣٠/ ١/ ٢٠٢٤

تاريخ النشر:
١/ ٣/ ٢٠٢٤

الكلمات المفتاحية:
إفريقيا الغربية، السلطان، علاقة، الكتابة التاريخية.

ملخص البحث:

من خلال ما توفر لدينا من مصادر تاريخية، تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على طبيعة العلاقة التي جمعت المؤرخ بالسلطة الحاكمة في منطقة إفريقيا الغربية، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهي علاقة أتسمت بغالب الأحيان، بالود والاحترام المتبادل بين الطرفين. كما تحاول أيضاً، إبراز أهم القضايا والإشكالات التي ركّز عليها المؤرخ في كتاباته، والتي هي بمعظم الأحوال لا تخرج من نطاق الكتابة الرسمية، التي تمجّد السلطان وتزين صورته أمام الرعية. وأخيرا، تقف هذه الدراسة عند مسألة علاقة رأس الدولة (السلطان)، بباقي مكونات المجتمع الإفريقي خلال فترة الدراسة.

المجلد الثاني العدد (١٤)

شعبان – ١٤٤٥هـ

آذار ٢٠٢٤م

The Historian and the Sultan in West Africa during the 16th and 17th Centuries: What Relationship?

Dr. Ali Issa Issa

University of Aleppo

Faculty of Political and legal Sciences, Syria

aliissa82@yahoo.fr

Received:
25/1/2024

Accepted:
30/1/2024

Published:
1/3/2024

Keywords:
West Africa, Sultan, Relationship, Historical Writing.

Journal of African Studies
volume (2)
Issue (14)
Shaaban 1445 H

Absrract

Through the historical sources available to us, this study seeks to shed light on the nature of the relationship that brought together the historian and the ruling authority in West Africa during the sixteenth and seventeenth centuries. This relationship was often characterized by mutual cordiality and respect. The study also tries to highlight the main issues and problems that the historian focused on in his writings, which in most cases do not deviate from official writing, glorifying the sultan and embellishing his image in front of his subjects. Lastly, this study examines the issue of the relationship between the head of state (the Sultan) and the rest of the components of African society during the study period.

المقدمة

إنَّ منطقة إفريقيا الغربية، أو بلاد السودان بالمصطلح القديم، من البلاد العريقة في الحضارة؛ حيث تعاقبت على أرضها الشعوب والدول منذ فجر التاريخ، وتمازجت في أجوائها الحضارات القديمة، وتركت كلَّها بصمات مُهمّة على مسيرتها الحضارية، كما ساهمت في تشكيل وعيها بالحياة والكون.

كما عرفت المنطقة خلال العصر الحديث، وخاصة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، نهضة ثقافية مهمة تجلت مظاهرها في بروز إنتاجات فكرية (تاريخية)، قيَّمة ينتمي مؤلفيها إلى أبناء المنطقة، ونخص بالذكر مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي، صاحب كتاب "تاريخ السودان"، ومحمود كعت صاحب مصنف "تاريخ الفتاش"، اللذان يعتبران من أهم المصادر المحلية التي تناولت تاريخ المنطقة خلال العصر الحديث، والتي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنهما. بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لا تقل عن المصنفين، من حيث الأهمية والقيمة المضافة.

إنطلاقاً من هذا التقديم، سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء عبر شرفات مختلفة، على إشكالية تاريخية، نعتقد بأنَّها لم تنل حظها بالبحث والتقصي من قبل الدارسين والمهتمين بالشأن الإفريقي، سواءً عن قصد، أو بدون قصد. ألا وهي: **علاقة المؤرخ بالسلطة الزمنية (الحاكمة)، في منطقة إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٦ و ١٧م .**

أهمية الدراسة وأهدافها:

تكمن أهمية هذه الدراسة، في كونها تسلط الضوء على طبيعة وخصوصية العلاقة التي جمعت بين صاحب القلم (المؤرخ)، بالسلطان في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، خلال القرنين (١٦ و١٧م)، وهي علاقة – كما سنرى – اتسمت بالتقدير والاحترام المتبادلين، التي قلَّما نجد لهما نظيراً في بعض أرجاء العالم الإسلامي حينئذٍ. وكما تهدف هذه الدراسة أيضا، إلى فتح آفاق جديدة أمام الباحثين لتناول مثل هذه الدراسات مستقبلا، التي عرفت تهميشا من قبل الباحثين؛ نظراً لقلة المادة العلمية وندرتها.

حدود الدراسة ومجالها:

الحد الزمني، سوف يتخذ البحث من القرن السادس عشر للميلاد، بدايةً له لأنَّه خلال هذا القرن بدأنا نلمس البذور الأولى للصحوة الثقافية، والتي ستتمكن من خلالها إفريقيا الغربية استنبات بعض أنواع المعرفة التاريخية في تربتها. ومن القرن السابع عشر للميلاد، نهايةً له، حيث أنَّه القرن التي شهدت به منطقة إفريقيا الغربية تطوراً ملحوظاً في نهضتها الفكرية، من خلال ظهور كتابات ذات صبغة تاريخية، دونت بأقلام أبناء البلد، ككتاب "تاريخ السودان"، لعبد الرحمن السعدي، وغيره.

أمَّا فيما يتعلق بمجال الدراسة، فإنَّها تنحصر في منطقة معروفة في المصادر العربية وكتب الرحَّالة والجغرافيين العرب باسم "السودان الغربي"، أو "إفريقيا الغربية" في المصطلح الحديث. الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً، إلى حواشي بحيرة تشاد شرقاً، ومن جنوب الصحراء الكبرى إلى نطاق الغابات الاستوائية، وبحسب الإحداثيات المعاصرة، تنحصر بلاد إفريقيا الغربية ضمن خطوط الطول والعرض بين خط طول ١٠ درجة شرقًا، و٢٠ درجة غربًا، وبين خطي العــرض١١ و١٧ درجة شمال خط الاستواء.[١]

منهجية وأدوات الدراسة:

لقد اتبعنا في دراستنا هذه، المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج السردي التاريخي مع مقارنة المعلومات من خلال المصادر والمراجع بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

تتلخص إشكالية الدراسة من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف كانت العلاقة بين المؤرخ والسلطان خلال القرنين ١٦ و ١٧م؟ هل تميزت بالود والتقدير، أم عكس ذلك؟ وهل تميزت الكتابات التاريخية بتناول جميع جوانب الحياة، أما أنَّها ركزت على شخصية السلطان دون غيره؟ و إلى أي بطانة ينتمي أصحاب النصوص التاريخية؟

(1) Barry (B.), 1988, La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan, p. 27.

إلى عامة الشعب، أم من الفئات المثقفة والمتنورة، والقريبة من السلطة الحاكمة؟ وأخيرا، كيف تميزت علاقة السلطان بباقي فئات المجتمع؟

هذه إذاً مجمل الأسئلة التي سنعمل على مناقشتها في هذه الدراسة، وهي بطبيعة الحال، لم تخلُ كغيرها من الدراسات من بعض النواقص والعيوب، لأنَّ بلوغ الكمال لله وحده.

وأخيراً، أرجو أنْ تكون هذه الدراسة بمثابة لُبنة جديدة، ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخ إفريقيا الغربية الحديث، بأقلامٍ عربية، تكون بعيدة عن النظرة الاستعلائية المتكبرة التي صغت على أغلب الكتاباتً الأوروبية، والتي كانت نتائجها بعيدة عن الواقع، والحقائق التاريخية؛ لأنَّها غالباً ما تسعى إلى تلميع صورة الأوروبي في الذاكرة الإفريقية.

علاقة صاحب القلم (المؤرخ)

بالسلطة الزمنية (الحاكم)

إنَّ الباحث المتمدرس في تاريخ إفريقيا الغربية خلال العصر الحديث، سيدرك بأنَّ رواية الأخبار التاريخية في المنطقة قد ارتبطت بمحيط الأمير، أو القائد السياسي، وفي ظل سلطته ترعرعت وتطورت الرواية الشفوية؛ وفي الوقت الذي أخذت فيه النخبة المثقفة من العلماء الأفارقة تستلهم الثقافة العربية في التدوين، استمر الحال كما كان عليه في السابق، وظلَّ المؤرخ الإفريقي شأن القوَّال، ملحوظاً بعين التقدير والاحترام لدى السلطان، صاحب الأمر.

وبذلك، لم ينفصل قط فعل التأريخ الشفاهي أو المكتوب ببلاد إفريقيا الغربية خلال فترة دراستنا، عن البلاط السلطاني، والسلطة الحاكمة. فقد كان أصحاب الكلام من الرواة المحدثين (العرافون، القوالون، المغنون)، دائماً بجانب الحاكم، يشيدون بأعماله الخارقة، ويُذكِّرونه بما أنجزه أجداده من الملاحم البطولية؛ حتى يحثوه على الأعمال الجليلة والعظيمة، ثم يجتهدون – بعد ذلك – في الانتقاص من قوة الأعداء،

والمنافسين المحتملين أو الواقعيين.[١]

وفي هذا السياق، سار المؤلفون الأفارقة الأوائل منذ القرن السابع الهجري (١٣م) على الأقل، ممن دونوا لنا تلك المصنفات التاريخية، مثل ديوان سلاطين كانم برنو،[٢] أو غيرها مما ضاع ولم نتمكن من الوقوف عليها لحد الآن.

وفي الوقت الذي أخذت فيه مكانة الإسلام تتعزز بالمنطقة، وبدأت بعض النخب الإفريقية تتطلع للانخراط في فضاء الثقافة العربية الإسلامية، فإنَّها لم تعمل على الابتعاد عن السلطة السياسية، بل ظلّت النخب الإفريقية المهتمة برواية التاريخ تعمل تحت مظلة البلاط، واستمرت تتغذى بعطاءاته ومنحه. وتبعاً لذلك، استمر أصحاب الأعمال المدونة في عملهم التحفيزي، كما كان شأن المخبر – القوَّال صاحب الكلام في منظومة التقاليد الشفاهية.[٣]

فأفراد عائلة كعت، الذين ساهموا في تأليف "تاريخ الفتاش"[٤]، فيما بين مطلع القرن العاشر الهجري(١٦م)، ومنتصف القرن الحادي عشر الهجري (١٧م)، كانوا من العناصر المقربة للسلاطين على عهد دولة الأسكيين، خاصة أثناء ولاية "الحاج أسكيا

---

(١) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ترجمة من الفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، ١٩٨١، ص. ٨٢.

(2) Dierk (L.), 1977, Le Diwane des sultans du Kanem- Bornu : Chronologie et histoire d'un royaume africain (de la fin du Xe siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH, Wiesbaden.

(٣) أحمد الشكري، **الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى متم القرن ١٨م**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ٢٠١٠، ص ٣١٧.

(٤) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، حققه هوداس ودولافوس، أنجي: بريدن، ١٩١٣.

محمد"[١]، و "أسكيا داوود"[٢]. وأما المؤرخ عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب "تاريخ السودان"، فقد كان يعمل كاتب لدى الباشوات أيام حُكم الرماة. ونكاد نجزم أنَّ صاحب كتاب "تذكرة النسيان"[٣]، كما هو الآخر من المقربين لأهل السلطان، أو من الأعيان الأكابر ممن تشتبك بهم مصالحهم بمصالح هذا السلطان أو ذاك.

إلى الشرق من مملكة سنغاي، حيث ترتفع أعلام مملكة "كانم – بورنو"، ارتبط اسم مؤرخي الدولة بالبلاط؛ فنجد الإمام الفقيه "مسفرمه عمر بن عثمان"، يخدم السلطان "إدريس بن علي بن أحمد (١٤٩٧-١٥٧٩)، بينما ارتبط اسم الإمام "أحمد بن فوطو"، ببلاط السلطان "إدريس ألوما (١٥٦٤-١٥٩٦م). وتتجسد هذه المكانة في إمامته للسلطان المذكور، وحاشيته في الصلوات؛ مما يفترض إقامة مؤرخنا بالقصر السلطاني أو قريبا منه. وفي هذا ما يفسر أيضا كثرة مصاحبته لسلطانه، حتى أنه كان يرافقه في غزواته وتحركاته العسكرية، بل واتته الفرصة في أكثر من مرة، لمتابعة الكثير

---

(١) الأسكيا محمد (٨٩٩ــ ٩٣٥هـ/ ١٤٩٣ــ ١٥٢٨م): هو أول ملوك آل أسكيا ومؤسس حُكم دولتهم، تولى السلطة سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، بعد الإطاحة بسني بارو، آخر ملوك أسرة سني، أشار المؤرخ محمود كعت إلى أنَّ هذا السلطان كان جليل القدر بين أهله، كما كانت له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثيل لا من قبل ولا من بعد. أجمعت أغلب المصادر على حنكته وقدرته على إقامة تنظيمات إدارية جيدة، إلى أن أصيب بالعمى وعزله ابنه أسكيا موسى، وتولى الحُكم محله، وبعد الإطاحة به دخلت مملكة سنغاي منعطفاً جديداً، تميزت بالصراع المرير بين الأمراء حول الحُكم، لهذا انتشرت في صفوفهم الحرب والفتن، وهو ما أدى إلى انهيار كل ما بناه هذا السلطان. راجع: كعت، تاريخ الفتاش، ص ٥٩.

(٢) حكم **أسكيا داوود** مملكة سنغاي مدة طويلة بالمقارنة مع باقي السلاطين من أسرته؛ حيث دامت فترة حكمه قرابة ثلاثة وثلاثين عاماً، ويصنف عهده من أزهى فترات حُكم الأسكيين. راجع: عمر موسى عز الدين، ٢٠٠٣. دراسات إسلامية غرب إفريقية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص. ٨٩.

(٣) مجهول، ١٩٦٦، **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**، باريس: ميزونوف، وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة عام ١٩٧٣-١٩١٤، ترجمة للفرنسية مع نشر المتن العربي: هوداس بمساعدة بينوة.

من مشاورات السلطان مع القادة العسكريين أثناء انعقاد مجالس الحرب، التي عادة ما تسبق القيام بحملة ما ضد بعض القبائل المناوئة، أو المنافسة.

وغير خاف، أنَّ المكانة العلمية لابن فرطو، ومعرفته بشرائع الإسلام، فضلا عن درايته بالحديث النبوي، كانت كفيلة بأن تنزله تلك المنزلة الرفيعة، والحظوة البالغة لدى السلطان إدريس بن علي.

وما من شك أنَّ الانتماء لفئة المؤلفين ببلاد إفريقيا الغربية، يُعد بحد ذاته مؤشرا على انتماء المؤلف وأسرته لفئة مرموقة، وميسورة الحال، تُحسب على طبقة الأعيان وكبار القوم. وفي هذا الإطار، يمكننا القول، بأنَّ رواية الأخبار التصقت بالسلطان السياسي، ولم نشهد فيما توفر لنا من مواد مصدرية شفاهية، أو مكتوبة، أنَّ كتابة التاريخ اعتزلت السلطان الحاكم، أو انزوت بنفسها عنه.(١)

وفي هذا الارتباط الوثيق ما يبرر انشداد اهتمام المؤرخين الأفارقة المنتمين إلى منطقتنا، بسلوك وشخوص الفاعلين الأساسيين في الحقل السياسي من أباطرة وملوك وأمراء، فقد كانت سيرة صاحب السلطان تشغل الحيز الأكبر في عملهم، بينما لم يكن لهم اهتمام بأمر الدولة وأجهزتها إلا بقدر ما يرفد اهتمامهم بشخص الملك وسلوكه. ونتيجة لذلك، غاب عنا في ما خلفته إفريقيا الغربية (شفاهيا أو كتابيا)، الكثير من أحوال الدول والإمارات القائمة: غانة، مالي، سنغاي، كانم بورنو، جولف، ولم نتمكن من متابعة أطوار هذه الوحدات السياسية ومؤسساتها الهيكلية من منظور الكتابة التاريخية السلطانية الإفريقية.

إنَّ أمر الدولة كمؤسسة تنظيمية للمجتمع، كان غائبا بشكل لافت في النصوص الإفريقية، لكن، علينا أن لا نؤاخذ المؤلفين الأفارقة على ذلك؛ انطلاقا من الأسئلة

---

(١) إذا كان توفر سلطة مركزية يمثل أحد الدوافع الأساسية في تنمية الواقع الثقافي، ومنه التأليف التاريخي، فإنَّ الحالة في بلاد شنقيط تقدم لنا نموذجا فريدا ومتميزا للغاية؛ حيث إنَّ الوضع الثقافي بها نشأ وتطور بمعزل عن السلطان الغائب، كما أنَّ النخبة العالمة قلما اعتمدت الثقافة كوسيلة، أو كغاية للرقي الاجتماعي، أو السياسي.

المستوحاة من تجربة الدولة الإسلامية، أو تجربة الغرب المسيحي في تحديد معنى الدولة. ونرى أنه إذا كان من اللازم أن نشغل أنفسنا بالقضية، فحري بنا أن نتناولها انطلاقا من سلوكيات الحاكم في علاقته بمختلف فئات المجتمع الغرب الإفريقي.

وههنا، فإنَّ ما يهمنا في الانشغالات الرئيسية للمؤرخ في **علاقته بالسلطان**، إنَّما يتمثل في الاهتمام البالغ، والتركيز القوي من لدنه على **مسألة العدل** في سيرة الحاكم. ويظهر أنَّ القضية شكلت بالنسبة لمعظم المؤرخين، الزاوية الأساس في سرد سيرة الحاكم، والمنظار الحي الذي يتم من خلاله تصوير، وتحقيق السيرة الذاتية للأمير أو الملك. وترتيبا على ذلك، باتت المسألة تدمع بنية المتن الإفريقي بشكلٍ لافتٍ.

ونستفيد من معظم المصادر المتوفرة، أنَّ العدل سواءً فيما بين أفراد المجتمع، أو ما بين شرائحه المختلفة، خاصة ما بين السلطة الحاكمة والفئات المكونة للمجتمع، كان يمثل قيمة مجتمعية أصيلة، ومتأصلة في سلوك الأفارقة، كما أنه يمثل خلفية ومرجعية حاكمة ومتحكمة في ذهنية الفرد، أو المجتمع الغرب إفريقي. من ثمة، نفهم حرص السلاطين الأفارقة على تحقيق العدل، ونستوعب أهمية القضية في بنية السرد التاريخي الإفريقي.[١]

إنَّ كلَّ قراءة للنصوص التاريخية الإفريقية تتم بعيدا عن هذه الزاوية، لن تستكنه طبيعة **علاقة المؤرخ بالسلطة الزمنية**، وستدرجها حقا في سياق ما هو متداول بالنسبة لتاريخ الدول الإسلامية، أو المسيحية، بينما الأمر غير ذلك. إذ إنَّ موقع المؤرخ في عِقدِ السلطة الزمنية الغرب إفريقية، ينفرد بمكانة مرموقة ومتميزة، مما يجعله يتمتع بسلطة نافذة لدى الأمير الحاكم. ولعل في الأحداث التي اعقبت عزل السلطان أسكيا الحاج محمد عام ١٥٢٨م، وما رافق ذلك من تنازع بين الأمراء الأسكيين على السلطة، ما

(١) قيمة العدل في المجتمع الإفريقي يحتاج لدراسة خاصة ومستقلة، وقد تطورت بشكل لافت بعد اعتناق السودان للإسلام، مما منحها نكهة فريدة مقارنة مع التجارب المعروفة في تاريخ المجتمعات الإسلامية والمسيحية على حد سواء. ونرى أن دراسة أمر الدولة الغرب إفريقية، انطلاقا من قيمة العدل، يمكن أن يحيط بالظاهرة بشكل عميق وبعيد عن النظريات المتهافتة المتداولة في حقل الدراسات الإفريقية، مثل تلك التي تصف المجتمعات الإفريقية بأنَّها مجتمعات بدون دولة.

يوضح الصورة؛ ذلك أنه على الرغم من وساطة والدته (باستحضار موقع المرأة في المجتمع الغرب إفريقي)، والفقهاء (بمكانتهم المرموقة في عقد الدولة)، لإصلاح ذات البين فيما بين الأمراء الأسكيين، فإنَّ تدخل المؤرخين في الأمر كان حاسما.[١]

وباستعراض طبيعة العلاقة بينهما من خلال ما تفصح عنه النصوص المتوفرة لدينا، يظهر أن ليس هناك مقايضة بين السلطان والمؤرخ؛ مما يجعل الأخير مندرجا ومرتبا فيما عُرف في الثقافة العربية الإسلامية، أو الغربية المسيحية، بمؤرخي السلطان أو البلاط؛ فعلاقتهما تشي ببعض من مظاهر الود والاحترام المتبادلين.

وبالنظر لأهمية مسألة العدل في المجتمع الغرب إفريقي قمّةً وقاعدةً، وحساسية القضية في الدول الإسلامية على امتداد تاريخها، فقد استأثرت القضية باهتمام أصحاب مصادرنا العربية فيما بين القرنين الثالث والعاشر الهجريين (٩ – ١٦م)، فبات كل من تحدث عن تاريخ المنطقة إلا وأشاد بهذه الخصلة الاجتماعية الحميدة لديهم، ونكاد لا نجد واحداً منهم أغفل الحديث عنها، أو لم ترد عنده رواية لها علاقة بالعدل في المجتمع الغرب إفريقي.[٢]

ولم يكن أصحاب مصادرنا وحدهم ممن أثارتهم مسألة العدل في بلاد إفريقيا الغربية، ذلك أنَّ الكثير من المسؤولين في بلاد المغرب، وفي غيره من بقاع أرض الإسلام، كان لهم وعي عميق بها، وأية ذلك، أنَّ والي سجلماسة في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م)، حاول استثمار هذا الجانب في تيسير وتنمية ظروف التجارة الصحراوية. وفي هذا الجانب، تندرج تلك الرسالة التي وجهها نفس الوالي لملك غانة،[٣] ونصّها كما احتفظ

(١) أحمد بن يحيى بن فضل الله (العمري)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٨، ص ٦٥. السعدي، تاريخ السودان، ص.٨١.

(٢) عبد الرحمن بن محمد المغربي (ابن خلدون)، ١٩٥٦ ــ ١٩٦١، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (العبر)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، مج٦، ص. ٤١٥. العمري، مسالك الأبصار، ص. ٦٧.

(٣) **مملكة غانة**: هي أول تنظيم سياسي عرفته المنطقة، اتخذت من كومبي صالح (شمال شرق موريتانيا

به المؤرخ التلمساني أحمد المقري: " **نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا بالأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أنَّ العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة**".[١]

وفي ذات السياق أيضاً، يمكننا أن نفهم رواية مؤرخ تنبكت "عبد الرحمن السعدي"، عن السلوك الجاف لفقهاء تنبكت إزاء السلطان أسكيا موسى (١٥٢٨-١٥٣١م)، حتى إنَّ قاضي المدينة الفقيه "محمود بن عمر"، كان يتحاشاه ويتجنبه بسبب اغتصابه لعرش والده الحاج أسكيا محمد.[٢] يستدعي الموقف أيضا، استحضار واقعة ترحيل العلامة المؤرخ "أحمد بابا التنبكتي"[٣] (١٥٥٦- ١٦٢٧م) من مدينة تنبكت إلى

حالياً)، عاصمة لها، وكلمة غانة تعني في لغة الماندينغ: الرجل القوي الذي يتمتع بقدرات خارقة. وصلت أوج قوتها خلال القرن الخامس الهجري (١١م)؛ فأصبحت حدودها تلامس الصحراء في الشمال، ونهر السنغال في الجنوب، ونهر النيجر في الشرق، وكان امتدادها على حساب ممالك سودانية صغيرة، مثل: مملكة التكرور (جنوب نهر السنغال)، ومملكة صوصو (على نهر النيجر). إنَّ نشأة مملكة غانة ما تزال محاطة بالغموض؛ نتيجة انعدام المصادر المكتوبة، وكل ما يمكن أنْ نؤكده بهذا الصدد، هو أنَّ اسمها أصبح متداولاً في بعض المصنفات العربية منذ القرن الثاني الهجري (٨م)، على أقلُّ تقدير.راجع: أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٧. الشريف الإدريسي، ٢٠٠٧. **أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان**، تحقيق: الواحي نوحي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ المغرب، ص. ٢٥٣.

(١) أحمد المقري، ١٩٦٨، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بيروت: دار صادر، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثالث، ص. ١٠٥. نقلاً عن: الشكري، **الذاكرة الأفريقية**، ص ٣٢٢.

(٢) **تاريخ السودان**، صص. ٨١-٨٢.

(٣) نشأ **العلامة أحمد بابا** في عائلة علمية عريقة، تلقى فيها أصول العلوم الشرعية واللغوية وما يساندها، ولازم فيها مشايخه المتميزين سنين عددا، منهم من لازمه أكثر من عشر سنين، ودرس خلال مسيرته عددا من الأصول العلمية – كمختصر خليل- دراسة متكررة ومتعمقة، لقد اهتم بتكوين نفسه بمجالسة العلماء، وجمع الكتب، ومذاكرة العلم ومدارسته؛ دون كلل أو ملل، فحينما كان أقرانه يتسامرون تحت ضوء القمر، أو على كثبان الرمل؛ كان الكتاب جليسه، والبحث والتدوين أنيسه. إنَّ التأسيس الجيد، والتركيز على التخصص وعدم التشتت والاهتمام بتطوير

مراكش بالمغرب الأقصى، وهي الواقعة التي غالباً ما أدرجها الباحثون تحت عنوان: **محنة الفقيه أحمد بابا**. وتكاد تشكل أول امتحان عسير لفقيه سوداني، إذ لم يسبق لأي أمير أو حاكم محلي في تاريخ المنطقة إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري (١٧م)، أن يتجرأ على العلماء أو حاول مسهم بسوء. وحتى بالنسبة للسلطان سني علي (١٤٦٤-١٤٩٢م) المؤسس الحقيقي لدولة سنغاي، الذي أعرض عن الفقهاء لطبيعته العسكرية، وضعف تأهيله في الثقافة العربية الإسلامية، فإنَّه اكتفى باتخاذ مسافة بينه وبينهم، ولك يعرهم نفس الاعتبار الذي كان يعيره لهم باقي السلاطين الأفارقة منذ القرن الرابع الهجري (١٠م)، وهذا ما يفسر العتاب والتحقير الذي لقيه هذا السلطان من مؤرخي تنبكت: "محمود كعت"، و"عبدالرحمن السعدي".[١]

فبالعودة إلى محنة فقيهنا العلامة أحمد بابا، يمكننا القول إنَّه إذا استثنينا الصعوبات التي لقيها الرجل في الطريق الصحراوي أثناء توجهه مرغما ومقيداً من تنبكت إلى مراكش عام ١٥٩٤، فإنَّ ما نقع عليه بعد ذلك، يفيدنا بأنَّ فقيهنا نزل بالمدينة الحمراء (مراكش)، وعاش بها مرحلة في سجن ثقاف، ثم ما لبس أن أصبح حُرَّاً طليقاً بالعاصمة السعدية، يستقبل الناس ويُقبل عليهم، يتوسط حلقات الدرس، ويستمتع بتحلق الطلبة والفقهاء المغاربة حوله، وإذا أحسَّ بالوحدة والوجد، خرج لزيارة الأضرحة، وقتما شاء وكلَّما شاء.

فقد درّس علامتنا كتب الحديث والفقه المالكي وعلوم العربية، في حاضرة من كبرى حواضر العلم في وقته (مراكش). فمن أين حصَّل على هذا العالم الذي تقدم به مع صغر سنه؛ على أهل التخصص في المذهب واللغة؟ وعلى ماذا يدل هذا التمكن والتقدم العلم؟

النفس في التخصص، ومتابعة الجديد فيه، أحد أهم أسباب النجاح والتميز والتأثير.

(١) لتفادي أي اصطدام مع السلطان سني علي، اجتهد كثير من فقهاء تنبكت في الابتعاد عنه، بل استغل بعضهم الفرصة لأداء فريضة الحج، ومن هؤلاء العلماء نذكر والد وجد العلامة أحمد بابا. راجع: أحمد بابا التنبكتي، ٢٠٠٠، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم عبد الحميد عبدالله الهرامة، منشورات دار الكتاب، طرابلس، ص. ١٤١.

لقد نال العلم ووصل إلى درجة الإمامة فيه، بدراسته في جوامع بلده تنبكت، وعلى يد مشايخها وعلمائها المحليين. دلالة هذا واضحة، وهي تمكن الإسلام وعلومه وانتشاره في إفريقيا الغربية. وهذا يؤكد أنَّ الإسلام دخلها قديما واستقر فيها، وتضلع أهلها وتمكنهم في علومه، يبين أنهم آمنوا به محبة وقناعة، فتعلموه وعلموه؛ فاستغنى أهل السودان بعلمائه على الرحلة لغيرهم، وصارت حواضرهم تنافس في قوة التعليم الإسلامي حواضر البلدان العربية.

أنَّ الإسلام هوية إفريقيا الغربية منذ مئات السنين، ويجب أن تبقى كذلك، وهذه مسؤولية كبرى يجب أن يتحملها أبناء اليوم بقوة واقتدار، لينقلوها لمن بعدهم كما نُقلت إليهم.

فوق هذا وذاك، أتيح لأحمد بابا أيام إقامته بالمغرب أن يستفيد من ذخائر المكتبات المغربية، فتحقق له ما لم يكن يحلم به، الأمر الذي أسعفه في إكمال مؤلفه "نيل الابتهاج"، وتلخيصه "كفاية المحتاج"، وما سواهما من المؤلفات التي أنتجها بالمغرب.

فعن أي محنة يتحدث الباحثون ! اللهم، إذا كانوا هم أنفسهم قد تسربلوا بما يحفل به الواقع والخطاب الإفريقي تجاه الحادثة، كما يرويها صاحبها، فانتقلت إليهم خلايا العدل الإفريقي، وسرت في دمهم، فأصبحوا ناطقين باسمه بامتياز وتفوق نادرين.[١]

ويحيلنا هذا الانزلاق على ما مرَّ بنا، وسجلناه بخصوص مغناطيسية أو جاذبية النصوص الإفريقية التي تتعطل ازائها الآلة التحليلية للباحث. ولو قدَّر لأي باحث أن يتخلص من تلك الجاذبية المغناطيسية، ثم أجال النظر في لائحة المحن الشديدة التي قاساها وعاناها أئمة وأعيان الفقهاء والعلماء في التاريخ الإسلامي إلى نهاية القرن العاشر الهجري (١٦م)، لما تجرأ أحد على إحاطة الواقعة بأهوال المحن، والشدائد العاصفة.[٢]

وغير خاف، أنَّ قضية العدل في المفهوم الغرب إفريقي لها امتدادات متعددة إن

(١) أحمد الشكري، **محنة الفقيه أحمد بابا التنبكتي (١٥٥٦- ١٦٢٧م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠١٢، ص ٢٢٣.

(٢) الشكري، **محنة الفقيه أحمد بابا التنبكتي**، ص ٢٢٤.

على المستوى الاجتماعي، أو السياسي، أو الثقافي، أو الاقتصادي، حتى أنَّ الأمر يغنينا عن استعراض الشهادات ذات الصلة بالموضوع. على أنَّ الجانب المثير في المسألة مما له علاقة بقضية الدولة، يدعونا للتساؤل حول **طبيعة علاقة رأس الدولة بباقي مكونات المجتمع على عهد مملكة مالي، ثم سنغاي، وكانم – بورنو، خاصة منهم رجال الدولة من كبار الموظفين بمن فيهم قادة الجند، أو طبقة العلماء والفقهاء بمن فيهم المؤرخون (أي بطانة السلطة)؟**

لعل أهم ما نسجله بهذا الشأن، أنَّه سواء في عهد مالي أو سنغاي (القرنين ١٣ – ١٦م)، نقع على ما يفيد مداخلة شخص السلطان لبطانته وباقي مكونات المجتمع. وأبعد من هذا، يمكن للسلطان أن ينتظر عند باب دار الفقيه حتى يأذن له هذا الأخير بالدخول، بل إنَّ السلطان في التقاليد الملكية الغرب إفريقية، يلح أن يكون أول المستقبلين للحجاج الأفارقة عند مشارف العاصمة السياسية أو العلمية (كاو – تنبكت)، ولا يضيره أن يُقبَّل أيديهم تبركا بما لامست من بقاع مقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة.

نستفيد مما تقدم من معطيات و غيرها، أن السلطان كان قريبا من رعيته و مخالطا لرجال دولته، سواء كانوا من قواد الجيش أو العلماء أو الموظفين و غيرهم. في المقابل، بادلته الرعية احتراما و تقديرا بالغين، نستدل عليهما من خلال شهادة ابن بطوطة، الذي يملك خبرة غير هينة في سيرة البلاطات الإسلامية و غيرها، إذ يقول رحالتنا بهذا الشأن : " إن السودان مقارنة مع غيرهم، كانوا أشد الناس تعلقا بملكهم و أعظمهم تواضعا و تذللا له".[١]

وإذا كانت التقاليد الجارية لدى أهل كانم–برنو، تقضي بأن "يسمح [السلطان]برأسه عنان السماء [...]، محجوب لا يراه أحد إلا في يوم العيدين، يُرى بكرة وعند العصر، وفي سائر السنة، لا يكلمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب؛[٢] فإنَّ هذه

(١) محمد اللواتي الطنجي (ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الأرقم، دمشق، ٢٠٠٩، الطبعة الأولى، ص ٣٧٦.

(٢) العمري، **مسالك الأبصار**، ص. ٥٤.

التقاليد وما يماثلها، انتهت بالرعية إلى الاعتقاد بأنَّ سلاطينهم لا يأكلون.

والغالب على الظن، أنَّ هذه الصورة التي التقطها لنا العمري قبيل منتصف القرن الثامن الهجري (١٤م)، ستختفي بعدئذٍ؛ ليصبح نموذج سلوك السلطان في مملكة كانم بورنو مماثلا لما عليه الحال في دولة سنغاي.

فهل جاء هذا التطور في سلوك الحاكم إزاء الرعية بفعل انفتاح مملكة كانم بورنو على محيطها، وتشوفها للنموذج السنغي والمغربي؟

نطرح السؤال باعتبار ما اكتسبتها العلاقات البرنوية المغربية من أهمية بالغة على المستوى السياسي أو الثقافي خلال القرن العاشر الهجري (١٦م)، خاصة على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨- ١٦٠٣م). وتفس الشيء، يمكن قوله بالنسبة للعلاقات السنغية المغربية؛ ذلك أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجري (١٥م)، وطيلة عهد الأسكيين (١٤٩٣-١٥٩١م)، انشدت وجهة السنغيين سياسيا وثقافيا إلى الشرق (المجال الحوسي)، أكثر مما انشدت إلى الغرب (إقليم جولف أو جلف). ولعل في هذا المؤشر، ما يفسر جرأة الأمراء الماليين على الاستمرار في مناوشة الأسكيين ثم الرماة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (١٦-١٧م).

وفي هذا الميل المتبادل، والتطور الحاصل في العلاقات ما بين الدول الثلاث، والأسر الحاكمة بها؛ سيفاوة (بكانم بورنو)، والأسكيين بسنغاي، والسعديين بالمغرب الأقصى، ما يفسر استقطاب المجال الحوسي لعدد من الرموز الثقافية السنغية والمغربية، بشكل مكثف خلال الفترة الفاصلة ما بين منتصف القرن ١٥م، ومطلع القرن ١٧م. وقد شمل هذا الاستقطاب عددا من أفراد أسرة أقيت سواء عند ذهابهم أو ايابهم من الحج. وأما الفقهاء المغاربة، الذين كانت لهم رحلة إلى المجال الحوسي، نذكر منهم: سقين، والمغيلي، والبلبالي، والتازختي وغيرهم.[1]

صفوة القول، إنَّ الحيثيات التي مرَّت بنا، تؤكد على أنَّ العلاقة بين الأمير الحاكم والمؤرخ، كانت تنعم بتوازن فريد من نوعيه، يغري بالمتابعة والتأصيل.

(١) الشكري، **الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى متم القرن ١٨م**، ص ٣٣٠.

المصادر والمراجع العربية

١. أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

٢. أحمد الشكري، **الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى متم القرن ١٨م**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ٢٠١٠.

٣. أحمد الشكري، **محنة الفقيه أحمد بابا التنبكتي (١٥٥٦- ١٦٢٧م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠١٢.

٤. أحمد المقري، ١٩٦٨، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بيروت: دار صادر، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الثالث.

٥. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، عناية وتقديم عبد الحميد عبدالله الهرامة، منشورات دار الكتاب، طرابلس، ٢٠٠٠.

٦. أحمد بن يحيى بن فضل الله (العمري)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٨.

٧. الشريف الإدريسي، **أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان**، تحقيق: الواحي نوحي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ المغرب، ٢٠٠٧.

٨. عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ترجمة من الفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، ١٩٨١.

٩. عبد الرحمن بن محمد المغربي (ابن خلدون)، ١٩٥٦ ــ ١٩٦١، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (العبر)**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، مج٦.

١٠. عمر موسى عز الدين، **دراسات إسلامية غرب إفريقية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣.

١١. مجهول، ١٩٦٦، **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**، باريس: ميزونوف، وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة عام ١٩٧٣-١٩١٤، ترجمة للفرنسية مع نشر المتن العربي: هوداس بمساعدة بينوة.

١٢. محمد اللواتي الطنجي (ابن بطوطة)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة**

النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الأرقم، دمشق، ٢٠٠٩، الطبعة الأولى.

١٣. محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، حققه هوداس ودولافوس، أنجي: بريدن، ١٩١٣.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. Barry (B.). 1988. La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére. Islam et conquête coloniale. Paris. éd. L'Harmattan.

2. Dierk (L.). 1977. Le Diwane des sultans du Kanem-Bornu : Chronologie et histoire d'un royaume africain (de la fin du Xe siècle jusqu'à 1808). Franz Steiner Verlag GMBH. Wiesbaden.